الحجّ إطلاق العنان لآفاق الروح

د. محمد قنديل

تـبدأ الرحـلة دوماً في اللـحظة التي نرتدي فيها ثياب الإحـرام، أياً كان الميقات، إنّها التهيئة الأفضل التي نخلع فيها الأقنعة القديمة بكلّ ما فيها من سعي كـاذب ومخـاتلة خـادعة، قــطعتين مــن المـلاحف البـيضاء، تستران الجسد دون أن يضمهما خيط واحد، فقط حزام جلدي نحمل فـيه الحاجات الضرورية، تستران الجسد بالكاد، بل وتوشكان في كلّ لحظة أن تتركاه عارياً علىٰ حقيقته، كأن هذه الخرق البيضاء لا تريد أن تدع للنفس أي مجال للمباهاة أو التكبّر، يكتسب اللون الأبـيض جـزءاً مـن قـدسية المكان، ويصبح عنواناً على المساواة والتوحد بـين الجـميع مـهما تـباينت الألســنة واخـتلفت ألوان الجـلود، وهي تشـبه الأكـفان، كأنّهـا تـعدّنا للرحلة الأخيرة التي لا مفرّ منها، أو تبشرنا بـيوم البـعث العـظيم عـندما نسـتيقظ حــاملين بـقايا أكـفاننا، متحلّلين مـن ذنـوبنا، سـاعين نحـو غـفرانٍ عسـير المـنال، هكـذا فـعل جدي، مثلما فعل البقية مـن مـلايين المسلمين الفقراء في مشـارق الأرض ومغاربها، حين احتفظ بهذه الملاحف بعد عودته من الحجّ لسنين طـويلة، أبــقاها نــظيفة ومــعطرة بـالشيح

والزعفران، حتىٰ يتكفّن بها حين تأتي ساعة الرحيل.

ولكن الإحرام يتعدّىٰ أيضاً ما ترمز إليه بساطة الثياب، الكلمات بالنفس وتترك آثارها فوق الروح، أهو الإحساس العميق بالذنب، أم أنّه البحث عن غفران يكون بلسماً لكلّ الخطايا؟ أتذكّر

يكفي أن تترك جسدك وسط الزحام بينما تطلق العنان لآفاق الروح، والدعاء والتضرّع هما الوسيلة لذلك

فهو رداء قد اقترن بالمعنىٰ، ودلّ علىٰ النيّة والقصد، والحجّ هو القصد كما عرفه علماء اللغة، قصد الرحيل إلىٰ هذا الوادي الضيق بين جبال الوادي، حيث يتوقّف الزمن في كلّ عام ليستعيد من أعماقه ذكرىٰ تلك الطقوس القديمة، ويدور الحجيج دورتهم الخاصّة وسط أفلاك الكون.

ها أنا ذا أقف، نقطة بيضاء ضئيلة وسط ملايين النقاط الساعية، أمام جبال مكّة وصخورها، تعلو أصواتنا جميعاً بأدعية التلبية التي لم تتغير من ألف وأكثر من أربعمائة عام «**لبيك اللهم لبيك، إنّ الحمد والنعمة لك والملك، لا شريك لك لبيك**»، تجيش قول الرسول ﷺ في حديثه: «**ما من مُحْرِمٍ يضحى يومه يلبي حتىٰ تغيب الشمس إلّا غابت ذنوبه فعاد كما ولدته أمّه**».

تتوالىٰ أمام عيني شواهد علىٰ وقائع التاريخ المقدّس الذي كان هذا المكان مسرحاً له، في تلك اللحظات النادرة من الزمن تجسد صراع الإرادة بين بشر يحملون أهواءهم الأرضيّة، وبشر يبشّرون بكلمة الله، والله غالب علىٰ أمره، تحيط بنا وُعُوْرَة الطريق التي لم تتغير منذ ذلك الأبد، حتىٰ أنّ هذا الإسفلت يبدو غريباً ودخيلاً علىٰ إيقاع المكان، كيف تحمّل سيدنا رسول الله هذه المسيرة وسط هذه الطبيعة الوعرة

بكلّ ما فيها من مشقّة؟! تحملها وهو راع للغنم، ثم وهو عـابد مـتهجد في كهفٍ ناءٍ، ثم حين هبط عليه الوحي وحمّله أمانة الرسالة، وبدأ التـطواف المضني وسط القبائل يدعو قلوباً قـد أصابها صمم، ثم عـندما عـانىٰ مـن الحـصار ومـن الأذى اليـومي ومـن مـرارة الترمـل بـعد مـوت زوجـته السـيدة خـديجة، وإرغـامه عـلى الهـجرة مـن الأرض التي شهـدت طفولته وجلّ شبابه وتأبّت عليه حين قارب عـلى الشـيخوخة، ثم كـانت رحـلة الهـجرة الطـويلة عـلىٰ أرض رمـضاء، وتحت شمس حـارقة، إنّ شعائر الحجّ هي بـصورة أو بأُخـرى اختصار رمزي لوقائع هذه السـيرة، فهي لا تدور فقط في نفس الأمـاكـن ولكنّها تجسد الكثير من أحداثها.

زحام مكّة لا يشبه أي زحـام، آلاف الوجوه مـن مخـتلف الأعـراق والأجـناس، اتسـاع رقـعة العـالم الإسـلامي وتـنوعه تـتجلّى في هـذا المكان، يتّسع لهم جميعاً هـذا الوادي الضيّق، ويضمهم جميعاً وهم يـؤدّون نفس الشـعائر في الوقت ذاتـه وفـق معجزة ما، أحد الأسرار الخفيّة لهـذا المكان، مهما كان الزحام كثيفاً فـإنّك تجد دائماً موطئاً لقدميك، وبقعة مـن الثرىٰ تضع عليها جبهتك، تدخل بنا السيارة من نفق «**كدي**» وهو جزء من مـشروع طـموح للـتغلّب عـلى المشكـلات التي يـواجـهها انـتقال الحـجيج في كـلّ عـام، والتي تأخـذ أحياناً طابع المأساة، لقـد كـان هـذا النفق واحداً من عدّة أنـفاق تخـترق الجبال التي تحيط بأم القـرىٰ، وهـي لفرط حداثتها لا يعرف طـرقها مـن يغيب عن مكّة فترة من الزمن، النفق

مُضاء علىٰ مدار اليوم، ومـاكـينات التهوية لا تكف عن الطنين لأنّه دوماً مـليء بـالسيارات والبـشر، بـل إنّ بعضهم يـتّخذ مـن جـنباته ـ ليـلاً ـ مأوىٰ بدلاً من النوم في العراء، وليس هناك من يمـنع ضـيوف الرحمـن مـن النوم في أي مكان.

هاآنا ذا أقف، نقطة بيضاء ضئيلة وسط ملايين النقاط الساعية، أمام جبال مكّة وصخورها، تعلو أصواتنا جميعاً بأدعية التلبية التي لم تتغير من ألف وأكثر من أربعمائة عام «لبيك اللهم لبيك، إنّ الحمد والنعمة لك والملك، لا شريك لك لبيك»

أخرج من عـتمة النـفق لأرىٰ أروع مشهد يمكـن أن يـراه مسـلم، المسجد المهيب أمامنا، البيت الحـرام الذي بارك الله من حوله، مآذنه التسع سامقة للسماء، كأنّها جماع مـن أذرع لا تكفّ عـن التـضرّع، لون الحـجر الأبـــيض المحـيط بـه، يخـتلط مع البياض الذي يكسـو الأجسـام، جدل لا ينتهي بين الحركة والسكون، أتوقّف قليلاً لأراقب عمارته البسيطة الآسرة في انـبهار، ثم يـرتفع صـوتي وترتفع كلّ الأصوات من حولي فجأة بنداءات الأدعـية، كأنّـنا نحـاول أن نستخرج من داخل نفوسنا كلّ ما هو كامن وخفي من قوى الإيمان لتمـنحنا القدرة عـلىٰ مـواجـهة هـذا المـشهد المهيب، كان الشاعر محمّد الفـيتوري قد قال لي: «**البيت العتيق هو مرآتك، ترىٰ فيه كلّ ما في داخـل نـفسك، إن كانت صافية فلن ترىٰ فيه إلّا صـفاء اللحظة، وإن كانت معتمة فلن تتجاوز أستار الكعبة السوداء**». إنّها إحـدى اللحظات النادرة مـن تـعرية الذات التي يجب على المرء أن يكشف نفسه فيها بلا خجل ولا مواربة.

دخـلنا مكّـة نهـاراً كـما فـعل النبي صلّى الله عليه وآله، فقد نزل هـو وصـحبه في حـجّته الأولىٰ والأخـيرة إلىٰ مكـان يدعىٰ «**ذي طوىٰ**» في أطـراف مكّـة، وفضّل أن يبيت فيه حـتىٰ لا يـؤخذ دخوله إلىٰ مكّة ليلاً سنّةً مـن بـعده، ففي النهار متّسع من الوقت، ومـدىٰ من الرؤية، والتأمّل متاح للـجميع،

يزداد إحساسي بالرهبة ونحن نخطو إلىٰ داخل المسجد الكبير لأداء العمرة التي تسبق شعائر الحجّ، كأنّها التمارين الأولىٰ، نوع من الإعداد الروحي لهذا الحدث الجلل، يريد الله للنفوس التي شردت طويلاً أن تهتدي بروية إلىٰ طريقها وسط مسالك الإيمان، وما هذه الطقوس المتتابعة إلّا مدارج ترتقيها الروح. أرض المسجد عارية من السجاد الأحمر الذي كان يغطيها في الأيام العادية، أحسّ ببرودتها أمناً وسلاماً، أواصل الاقتراب حتىٰ تحتلّ الكعبة كلّ حيز الرؤية، تخف الخطوات وتحتبس الأصوات، ترتفع من الساحة المحيطة بها همهمات متّصلة، شذرات من الأدعية التي تنطق بكلّ لسان، تتصاعد من دوائر متّصلة من البشر تلتفّ حول الكعبة، كأن ذرات الكون المتناثرة قد وجدت النواة التي تنتظم حولها كانتظام الأفلاك في مداراتها.

أهبط الدرج الرخامي وبصري معلّق بالبناء العتيق، مركز الكون، الأستار السوداء منقوش عليها آيات قرآنية بلون ذهبي، مرفوعة إلىٰ أعلىٰ، هكذا ترفع دوماً في أيّام الحجّ، ربّما حتىٰ لا تتعلّق عليها جموع الحجيج وتمزّقها، وربّما لتكشف عن البساطة الآسرة للبناء، صفوف من الأحجار الضخمة العارية من أي زينة أو طلاء أو نقوش، لم يزد عن بناء أبينا إبراهيم ﵇ إلّا قليلاً، فيه الكثير من بساطة الصحراء وشظفها، الحجر الأسود هو أقدم هذه الأحجار، إحدىٰ إشارات القدسية في هذا المكان علىٰ مدى الأحقاب، فهو الحجر الناقص الذي لولاه ما اكتمل البناء، ولعلّ إبراهيم ﵇ وهو يقيم البيت كان يبحث عن علامة دائمة منها يبدأ الجميع وإليها ينتهون، وعثر على الحجر الأسود كأنّه شهاب ساقط من السماء، وضعه في الرّكن الشرقي ومازال في نفس المكان حتى الآن، وقد حمله النبي الكريم ذات لحظة نورانيّة ووضعه في زاويته، لا ليفض الخلاف بين قبائل قريش الغاضبة فقط، ولكن ليؤكّد

استمرارية تكليفه برسالة سيّدنا إبراهيم عليه السلام.

أهبط وسط الجميع وأجعل الحجر الأسود نقطة البداية للطوفات السبع، والطواف هو أقدم المناسك، بدأ منذ عهد إبراهيم عليه السلام، ولم يفعل الإسلام أكثر من أنّه نقىٰ هذا الطقس من الشرك والأوثان، فلا يطوف حول الكعبة مشرك أو عار.

أصعب ما في الطواف هو الدخول إليه أو محاولة الخروج منه، فهناك دائماً أمواج متعاكسة من البشر، أوّلها يحاول الانتظام داخل الدوائر، وثانيها يحاول الخروج منها، وفي الوسط هناك من يلاطم الجميع حتىٰ يصل إلى الحجر الأسود ويقبّله، وعلينا أن نجد مكاناً وسط كلّ هذا الزحام وأن نرفع أيدينا بالتحيّة للحجر الأسود كلّما أصبحنا في مواجهته ما دمنا عاجزين عن الاقتراب منه، كان النبي ـ صلّى الله عليه وآله وسلّم ـ في حجّته الوحيدة قد رفع يده عندما وقف في مواجهة البيت وهتف داعياً: «**اللهم زد هذا**

عندما نرتدي ملابس الإحرام، آملين أن تكون هذه اللحظة النادرة من الإشراق قد غسلت كلّ ما نحمله من ذنوب.

البـيت تشـريفاً وتـعظيماً وتكـريماً ومهابة»، وليس أفضل مـن الدعـاء للتعبير عمّا تتوق إليه النفس، تـتردّد حـولي عـشرات الأدعـية بـلهجات مختلفة، وهـي مـن أروع الأصـوات التي يمكن أن تطرق الأذن، الكلمات عربية وإن نـطقت بهـا ألسـنة غـير عـربية، الكـثيرون مـنهم يمسكـون بكـتيبات أدعـية الحـجّ الصـغيرة، مكـتوبة بـلغات الأرض المخـتلفة، ولكـنّها تحـاول أن تشكـل نـفسها لتقترب من اللغة الأصلية للأدعـية، ومن المؤكّد أنّ الله يقبل الدعاء من أي لغة وبأيّ لهجة، ولكنّهم هنا يحاولون العودة إلىٰ منابع الإيمان بنفس لغتها الأصلية: **﴿ربّنا آتنا في الدنيا حسنة وفـي الآخـرة حسـنة وقـنا عـذاب النــار﴾**، نـطوف بـالبيت كـما فـعل الرّسول الكريم، ولكنّه كان قد طاف الأشواط الثلاثة رملاً، أي بـسرعة، وأكمل بقيّة الأشواط الأربعة مشياً، ولكن أنى لنا ذلك وسط هذا الزحام.

كلّ واحد منّا يطوف بطريقته، البعض يحاول الاقتراب لأقصىٰ مـا يستطيع حتىٰ يتعلّق بالجدران قبل أن تدفعه أيدي الحرّاس بعيداً، والبعض يركب فوق محفة يحملها رجال سـود أشـداء مـن الخـطر الاقـتراب مـن طريقهم، والبعض يفضّل التوكؤ علىٰ عـصاه، ويسـعىٰ بخـطوه البـطيء الضـيق، حـتى الذيـن فـوق مـقعد متحرّك يفسح الزحـام لهـم مكـاناً، ويـبدو أن مسـلمي جـنوب آسـيا يتلقون تدريبات خاصّة على الطواف في شكل قطارات بشريّة لا تـنفصم، لا أحد يستطيع اختراقهم أو الوقوف في طـريقهم، الأفـارقة يـضربون، والأتراك يزمجرون، والبـاكسـتانيون يـلقون بـنسائهم في المـعمعة ثم يستميتون في حمايتهن، وأهل الصين لا يكفون عن الانحناء، والمسـلمون الجـدد القـادمون مـن وسـط آسـيا مازالوا مـبهورين، يحـاولون تأديـة الخطوات الصحيحة، جامعة بـشرية هائلة، يطوفون حول البيت الوحـيد في العالم الذي يجمعهم، سقطت العديد من الأفكار، وانـفرطت القـوميات، وفشلت كلّ الروابط التي حاولت أن

تضمّ كلّ هذا الخليط البشري، وبقي هذا البناء العتيق قائماً، ينظمهم في تلك الدوائر التي لا بداية ولا نهاية لها، يصيحون كلّما وقفوا في مواجهة الحجر الأسود: «**بسم الله والله أكبر**».

في هذا المكان لا محلّ للضغينة أو الشرّ، فأنت لا تملك إلّا أن تدعو بكلّ الكلمات الطيبة، وأن تسعىٰ لطلب المغفرة وليس لتصفية الحسابات، يكفي أن تترك جسدك وسط الزحام بينما تطلق العنان لآفاق الروح، والدعاء والتضرّع هما الوسيلة لذلك، ثم نختتم كلّ ذلك بركعتين من الصلاة.

بعد الطواف يأتي السعي، وقبل السعي أحسّ بالعطش، في أمس الحاجة إلىٰ ماء زمزم، كان النبي ـ صلّى الله عليه وآله وسلم ـ قد شرب منه بعد أن أكمل طوافه وقال لأصحابه: «**إنّها مباركة، إنّها طعام طعم، وشفاء سقم**»، كان ماؤها عذباً وشافياً، قادراً علىٰ إرواء كلّ هذه الملايين من الحجيج علىٰ مدىٰ مئات السنين دون أن ينضب، هل هناك تفسير لكلّ هذه المعجزات التي تحدث في هذا المكان؟! أذكر أن المهندس عبدالعزيز المصري، وهو واحد من أشهر مهندسي الري في سوريا، قد حاول أن يضع تفسيراً علمياً لديمومة هذا البئر. قال لي: إنّها تقع في مركز الأرض تقريباً، لذا فإن عروق المياه في بواطن الأرض تتّجه إليها، وهذا الأمر هو أحد خصائص جاذبية المركز في كرة لا تكفّ عن الدوران.

يبدأ الانحدار نحو المزدلفة، الطرق كلّها تأخذ اتجاهاً واحداً، السيارات تزحف، وآلاف البشر بجانبها يسعون علىٰ أقدامهم، موكب ممتدّ في سكون الظلمة تحت الجبال وفوق الحصىٰ، الكلّ صامت تماماً ووصية الرّسول ﷺ تتردّد في كلّ الآذان: «السكينة، السكينة»

أمرّ علىٰ طول المسعىٰ بين جبلين، عبر الوادي الذي سعت فوقه السيدة هاجر، المكان الآن مكسوّ

بالرخام البارد الذي يتمّ تنظيفه باستمرار، عندما سعىٰ جدي في العشرينات من القرن الماضي كان يتقافز حافياً فوق الحصى الجارح، فأي لظىٰ سارت عليه هذه السيّدة الوحيدة وابنها يبكي من فرط العطش؟! لقد ظلّت تواصل السعي اللاهث علىٰ مدىٰ ستة أشواط، وعندما عادت من الشوط السابع وجدت المياه تتدفّق من تحت كعب وليدها، أهتف مع الجميع بالتكبيرات وكلمات التوحيد، وأهرول في مدى الضوء الأخضر ونكمل السعي مشياً حتىٰ جبل المروة، هو أيضاً لم تعد تظهر منه سوىٰ قمة ضئيلة، نمرّ بأبواب مكّة، الأسماء هنا تواريخ ووقائع، دورة أُخرىٰ من دورات العطش والري.

كأن لم يكن بين الحجون إلى الصفا
أنيس ولم يسمر بمكّة سامر

بيت قديم من الشعر قاله أحد سادة جرهم وهو يودع مكّة، الأبواب المتتابعة علىٰ طريق السعي تفسّر معنىٰ هذا البيت الملىء بالشجن.

بانتهاء السعي [**وعملية التقصير**] تنتهي شعائر العمرة ونصبح علىٰ أبواب الحجّ، إنّ النبي ﷺ بعد أن انتهىٰ من السعي انتقل إلى الأبطح بشرقي مكّة وأقام فيها حتىٰ يوم النزول بمنىٰ، وطوال هذه المدّة لم يذهب إلى الكعبة أو يقربها، كأنّه كان يرىٰ عبر أستار الزمن هذه الحشود التي تتدافع إلى البيت المقدّس في كلّ حين ووقت، ولم يرد أن يكرّر الزيارة، كان يسعىٰ نحو اليسر وإيثار السلامة لأمّته من بعده، ولكن من الذي يستطيع الابتعاد عن الحرم وهو علىٰ بُعد خطوات منه؟!

ثم يأتي يوم الحشد المهيب، يوم التروية أو الخروج إلىٰ منى استعداداً ليوم عرفة، ومنذ الصباح المبكر وقد انتابت مكّة نوع من الحمىٰ، امتلأت الطرق بالحجيج وقد أحرموا جميعاً في الملاحف البيضاء، كأنّ هذا يوم القيامة وقد بعثنا نحن جميعاً وفق معجزة ما، امتلأت الطرق بأرتال السيارات، وامتلأت السيارات

بحشود من البشر، وبدأت أعداد مضاعفة من الحجيج تأخذ طريقها عبر الأنفاق سيراً على الأقدام إلىٰ منىٰ، أفرغت مكّة ما فيها من بشر، ويقال: إنّ اسم التروية قد أطلق علىٰ هذا اليوم لأنّ الحجيج كانوا يتزودون فيه بالماء، وادي عرفة كان قفراً بلا ماء، ولكن هذه الصورة قد تغيّرت

كان ماؤها عذباً وشافياً، قادراً علىٰ إرواء كلّ هذه الملايين من الحجيج علىٰ مدىٰ مئات السنين دون أن ينضب، هل هناك تفسير لكلّ هذه المعجزات التي تحدث في هذا المكان؟! ... إنّها تقع في مركز الأرض تقريباً، لذا فإن عروق المياه في بواطن الأرض تتّجه إليها، وهذا الأمر هو أحد خصائص جاذبية المركز في كرة لا تكفّ عن الدوران.

وامتلأت عرفة بالمرافق التي تسع كلّ الحشود، في مثل هذا اليوم ركب الرسول ﷺ ناقته القصواء بعد طلوع الشمس، وتبعته حشود المسلمين في مسيرة مهيبة لم تر الصحراء مثلها، كان في وسطهم وكانوا حوله، وبلال بن رباح يرفع عوداً معلقاً عليه ثوباً ليستر عنه الشمس، فسبحانك ربي أن جعلتنا نعيش هذا المشهد من جديد ونستحضر طقوسه من زمن لا يموت.

ما أروعك يا يوم عرفة، وما أشدّ تأثيرك في النفس، ما من يوم أفضل عند الله من هذا اليوم، فهو يوم المباهاة، عندما يتباهى الله بأهل الأرض أمام أهل السماء، وكما الرسول ﷺ فإنه لم ير يوماً أكثر عتقاً من النار من يوم عرفة، أترك نفسي لأتجوّل في خطوط عرفة التسع، كلّها تتفرع من جبل الرحمة وتصب فيه، كأنّه محور هذه الجموع الحاشدة وقوّتها الجاذبة، تلّة صغيرة وسط الجبال العاتية علىٰ قمّتها نَصْب أبيض، علامة فارقة تضيع وسط حشود البشر الذين يسعون إليها في ملابسهم البيضاء، آلاف من الخيام تمتد في صفوف بلا نهاية، ولكن أكثر الناس بلا خيام، يكفي أن يعلّقوا قطعة من القماش فوق غصن شجرة، أو

يـرتكنوا إلىٰ جـدار، يسـعون ـكـما أسعىٰ ـفي طرقات المشعر الحرام دون مبالاة بـالحرّ أو الشـمس، عـائلات بأكـــــملها، الأم والأب والأبــناء الصغار، يبدو أنّهم قد بذلوا كـلّ مـا يمكنهم من أجل إتمام هـذه الرحـلة، آخرون غيرهم لا يقوون على السير وعلىٰ وجوههم آثار سـوء التـغذية، يتمنون ميتاً ومدفناً في هـذه الأرض المـقدّسة، الإيـرانـيون يسـيرون في جموع من الصعب اختراقها، يرفعون ـكـعادتهم ـ لافـتات ويــردّدون شـــعارات، الآسـيويون مـازالوا يحافظون عـلىٰ صـفوفهم المـنتظمة، قـطارات مـتتابعة مـن أجسـادهم الصغيرة تطوف بكلّ مكان، هل تلقوا تدريباً على السير في عـرفة أيـضاً؟ المصريون يسألون عن جبل الرحـمة في صخب، يدورون حـول أنـفسهم ولا يــصلون إليــه، مسلمو بـلاد السوفييت سابقاً لا ينسون نـصيبهم من التجارة، كلٌّ في ملكوته، وعرفة علىٰ ضيقها تتسع للجميع.

أواصـل السـير في الطـرقات، أشم عبق الأجساد التي لا تكفّ عن التـوسل، مـا كـل هـذا الإحسـاس بـالذنب، وأي نـوع مـن الخـطايا يستلزم كلّ هذا القدر من التـضرّع؟ هل آن لكلّ هؤلاء الفقراء والبسـطاء أن يــرتكبوا أنــواعاً مـن الخـطايا الكبرىٰ؟ أسير من خط إلىٰ آخر، إنّه إحساس النـفرة والتأهب في انـتظار حدث كبير، قيامة جديدة أو غفران شامل، تستدير الشمس في مـنتصف السماء، آخــذ زجــاجة مــن المـاء فأشرب نصفها وأصب النصف الآخر فــوق رأسي، لا عـطش في عـرفة، عـــشرات العـــربات تـقوم بـتوزيع كميّات كـبيرة مـن زجـاجات المـاء والألبــــان والعـــصائر، تــتبارى الشركات السعودية بـتوزيعها مجـاناً على الحجيج، هناك من يسوق جمـلاً مزيناً ويدعو من يشاء للتصوير وهو راكب علىٰ ظهره، ذكرىٰ لا تخلو من فائدة في ذلك اليوم، أسواق صـغيرة جانبية تـقوم عـلىٰ أطـراف الخـيام، مســتوصفات طـبية تـقدم المـعونة للمصابين بضربات الشمس، وحتىٰ

أفراد الكشافة السعودية يقومون بمجهود خارق لإرشاد الحجاج التائهين لأماكنهم.

عند الظهيرة، تبدأ الجموع في الاتجاه إلىٰ مسجد «نمرة» للحصول علىٰ مكان للصلاة، كان يوم عرفة متوافقاً مع يوم الجمعة، وهو نفس اليوم الذي قام فيه النبي ﷺ بحجته الوحيدة، لذا فالشوق عارم لتكرار التجربة، ففي هذا المكان ألقىٰ واحدة من أكثر الخطب بلاغة في تاريخ الإسلام، وكانت بمثابة الوصية الأخيرة، ولأنه كان يشعر بالوهن فقد وقف ربيعة بن أميّة تحت ناقته يردّد كلمات الرسول بصوت جهوري: «**أيّها الناس اسمعوا قولي، فإنّي لا أدري لعلي لا ألقاكم بعد عامي هذا، إن دماءكم وأموالكم وأعراضكم حرام عليكم إلىٰ أن تلقوا ربّكم، كحرمة يومكم هذا، في شهركم هذا، في بلدكم هذا**».

وعندما تحين اللحظات الأخيرة من هذا اليوم نصعد جميعاً إلى الهضاب والتلال ويصبح جبل الرحمة مغطىٰ تماماً بالبشر، ربّما نصبح جميعاً أشدّ قرباً إلى السماء التي نتضرّع إليها، ترتفع أصوات التلبية والابتهالات، فإذا كان الله سبحانه يباهي بهذا

تصوير ٢

اليوم، فليكن البهاء كاملاً، فلا أحد يدري متىٰ تكتمل دورة الزمن، ولا متىٰ ترتقي الروح إلىٰ بارئها، يصطبغ الأفق بحمرة الغروب وتحين لحظة الرحيل، ويظلّ الجمع واقفاً، وترتفع إلى السماء ملايين من الأذرع المتوسلة، إذا لم يكن هذا يوم عتقنا يا ربّ السموات فمتىٰ نعتق؟

يبدأ الانحدار نحو المزدلفة، الطرق كلّها تأخذ اتجاهاً واحداً، السيارات تزحف، وآلاف البشر بجانبها يسعون علىٰ أقدامهم، موكب ممتدّ في سكون الظلمة تحت الجبال وفوق الحصىٰ، الكلّ صامت تماماً ووصية الرّسول ﷺ تتردّد في كلّ الآذان: «**السكينة، السكينة**»، أي زحف صامت مهيب، وأي سكينة تصيب النفس وقد شهدنا حدثاً يقارب يوم الدينونة كوقفة عرفة؟

تظهر أضواء المزدلفة، واد صغير وسط الجبال الشامخة، يبدو مضيئاً وفوقه قمر علىٰ وشك الاكتمال، تقيم الجموع صلاتي المغرب والعشاء، ونبدأ جميعاً في البحث عن الحصى اللازم لرمي الجمرات، آلاف من الأيدي تلتقط الحصىٰ، ومن الغريب أنّه لم ينفد من هذه الأحقاب، ثم لم يعد أمامنا إلّا استعادة السكون في انتظار انبلاج الفجر، لحظات صامتة لمراجعة النفس، فالغفران يبدأ من الداخل، تغفر فيغفر لك، وتتواصل الدورة.

نستعد للرحيل من جديد، التوقيت هنا مختلف بعض الشيء، البعض يرحل مباشرة بعد منتصف الليل، والبعض الآخر يفضل البقاء، وفي كلّ الأحوال فإن الأعداد التي تتحرّك تكون غفيرة، ننتقل إلىٰ «منىٰ» محملين بالجمرات السبع، نهبط سريعاً وسط أمواج البشر لنرجم الشيطان، لقد أصبحنا الآن في نهاية الشعائر ولم يبق أمامنا إلّا أن نقصر شعورنا، أو نزيلها.

تبدأ أيام التشريق، إنّها الواجبات التي علينا أن نؤدّيها وإلّا بطل الحجّ، أو علينا أن نستعيض عنها بدم، نتوجّه للبيت العتيق للقيام بطواف الإفاضة، الزحام كثيف،

الجميع يقومون بالواجب في نفس الوقت تقريباً، كُتَلٌ متلاصقة من البشر تواصل الطواف، في غمرة هذا الزحام يهل علينا أذان الفجر، وكان علينا التوقف والاصطفاف استعداداً للصلاة، لم أتصوّر أن أجد فجوة وسط هذا الزحام، الشيء الذي لم أجد له تفسيراً حتى الآن، كيف أنّنا استطعنا أن نصطف، وأن نجد أيضاً مكاناً للركوع والسّجود، حتىٰ إذا انقضت الصلاة أطبق الزحام من جديد، نفس الأمر حدث أثناء السعي حين أُذّن لصلاة العيد، هناك مكان دائم للصلاة مهما ضاقت المساحة.

موعدنا الآن في وادي منىٰ، أيام التشريق ورمي الجمرات، بشكل أو بآخر فإن كلّ واحد منّا كان يرجم الشيطان الرابض في أعماقه، وما مظاهر الغيظ والحنق التي تنتاب الجميع حين يبدأون القذف بالأحجار والأحذية والنعال إلا نوع من تصفية الحساب مع النفس، وهذه أسهل مناسك الحجّ وأكثرها خطراً، ففيها يتمّ التدافع في وقت محدّد بعد طلوع الشمس حتىٰ غروبها وتصيب الأحجار الرؤوس إذا حادت عن هدفها، وقد حاولت الفتاوى الدينية التخفيف على الحجيج، ولكن الخطر مازال ماثلاً وأعداد الحجيج في ازدياد.

هل يغيّرنا الحجّ؟
هل يخفّف من نفوسنا ذلك الإحساس العميق بالذنب؟
هل يمنحنا القدرة علىٰ فتح صفحة بيضاء وسط حياة متشابكة مليئة بكلمات وجمل لا معنىٰ لها؟

عندما كنت أهبط الدرج الطويل المؤدّي إلىٰ مكان المناسك، استوقفتني امرأة عجوز قدّمت لي كيساً صغيراً فيه سبعة من الحصىٰ وهتفت بي: «**ارم من أجلي يا بني**»، ثم أخذت تجهش بالبكاء، كانت لا تستطيع مقاومة أمواج الزحام الجارفة، ولديها إحساس عميق أن حجّتها لن تكتمل مادامت لم ترم هذه الجمرات.

لم نذبح الهدي بأيدينا كما فعل

الرّسولﷺ ولكـنّنا خـضعنا جمـيعاً للنظام الميسّر الذي وضعته السلطات السعوديّة، يكفي أن ندفع مـبلغاً مـن المال يساوي قـيمة الأضـحية حـتىٰ تتولّىٰ إحدى الشركـات المـتخصّصة شراء الأضــحية، وتــقوم بــذبحها وتنظيفها، ثم تقوم بإرسالها مبردة إلىٰ كلّ فقراء العالم من المسلمين.

ليس هناك أكثر شجناً من لحظة الوداع، ومثلما بـدأ الحـجّ بـالطواف حول بيت‌الله لا بدّ أن نختمه بالطواف، كذلك فعل رسول الله في حجّته الأولىٰ والأخــيرة، ولكــنّ مشاعرالنـفس موزعة في الرغبة في البقاء وفي التشوّق لزيارة أخرىٰ، بقي أن نكمل الرحـلة بزيارة مدينة الرّسولﷺ التي آوتـه ونصرته، ولعلّ الزيـارة تحـمل بـعثاً متجدّداً لهذه النصرة بعد أن استطالت غــربتنا عــلى الأرض، الصـلاة في مسجد الرّسول متعة حقيقية، ويـبقى الصراع الحقيقي في محاولة الاقـتراب من المساحة الخضراء التي تصل بـين قبر الرّسول والمنبر الذي وقف عليه، إنّه قطعة مـن ريـاض الجـنّة يسـعى الجميع للصلاة فيها.

ولكن تبقىٰ في القلب حرقة من الأسئلة:

هل يغيّرنا الحجّ؟

هـل يخـفّف مـن نـفوسنا ذلك الإحساس العميق بالذنب؟

هل يمـنحنا القـدرة عـلىٰ فـتح صفحة بيضاء وسط حـياة مـتشابكة مليئة بكلمات وجمل لا معنىٰ لها؟

أسئلة كثيرة كانت تـتدافـع في صدري وأنا أعود بالطائرة في نهـاية تلك التجربة الروحية العميقة، كـنت قد عشت لحظات فريدة، انتظم فيها الكـون وفـق إيـقاع واحـد، صـلاة وقـياماً، تـضرّعاً وتـهجداً وبكـاء، ولعلّ هذا كان مغزى اجتماعنا في هذا الوادي الضيّق، أن نشعر أنّـنا جـزء ضئيل مـن كـون الله الواسـع، وأنّـنا نتحرّك في نفس مسـارات الأفـلاك، نسـطع ذات لحـظة مـضيئة عـندما نرتدي ملابس الإحرام، ثم نهوي بعد ذلك في ظلمات القبور آملين أن تكون هذه اللحظة النادرة من الإشراق قـد غسلت كلّ ما نحمله من ذنوب.